شخصية البَصّاص في رواية
(الزيني بركات) لجمال الغيطاني

The Character of the Spy in Gamal Al-Ghitani's Novel: Al-Zeini Barakat

م .م. محمّد فاضل جدّوع
Asst. Inst. Mohammad Fadhil Jaddoa

مديريّة تربية ذي قار
Thi-Qar Education Directorate

الملخّص

يطمحُ البحث هذا للكشف عن موضوعة وضعها الروائي المصري جمال الغيطاني داخل عالم روايته (الزيني بركات) أي موضوعة أساليب الجهاز الأمني في العصر المملوكي في مصر، وما ينسحب ذلك من إسقاطات تشير بعين السخط إلى عقد الستينيات إبان حكم الضبّاط الأحرار في مصر، وما لفّ هذا العقد من مصادرة للحرّيات العامّة، وقمع للرأي الآخر، وتغييب قسري في السجون والمعتقلات، ساهمت بتسيير عامّة المجتمع المصري وفق رؤى توتيليارية تخدم مصالح السلطة. وعلى هذا الطرح سندخل لرواية (الزيني بركات) ومقاربة مفهوم البصّاص، والجهاز الذي تنتمي إليه فئة البصّاصين، والمواصفات الّتي واجب توفّرها في الفرد البصّاص؛ لأجل قبوله في هذا الجهاز الأمني المُسلّط على رقاب المجتمع.

الكلمات المفتاحية : الشخصية الروائية، جمال الغيطاني، الرواية العربية، السرد.

Abstract

This research aspires to reveal a topic placed by the Egyptian novelist Gamal al-Ghitani within the world of his novel (Al-Zaini Barakat), that is, the topic of the methods of the security apparatus in the Mamluk era in Egypt, and the resulting projections that refer with discontent to the decade of the sixties during the rule of the Free Officers in Egypt.

The confiscation of public freedoms, suppression of other opinions, and forced absence in prisons and detention centers that surrounded this decade contributed to the general management of Egyptian society according to totalitarian visions that served the interests of the authorities. Based on this proposition, we will enter into the novel (Al-Zaini Barakat) and approach the concept of the voyeur, the device to which the category of voyeurs belongs, and the specifications that must be met by the individual voyeur. In order to be accepted into this security apparatus that has control over society.

Keywords: Narrative Character - Gamal Al-Ghitani - Arabic novel - Arabic novel - Narration

المقدمة

للرواية وقع شفيف، مؤثر وموحٍ للقارئ، يتعامل مع أهم قضايا الإنسان والوجود، بمركزيتها وهامشيتها، تحفل بالذاتي، وبالجمعي، بالوقت عينه، باللغة والأفكار، يتّسع إنائها لهموم الذات والقرين، لخطاب الآخر ورؤيته المُشكلة عن الذات، وغيرها من القضايا التي يضيقُ بها غير جنسٍ أدبي.

ورواية "الزيني بركات" حملت هذه الأسئلة، وبثّت من خلال أسطرها هموم يحملها المؤلف جمال الغيطاني، رصدها من واقعه المرير، وشكّلها بلغةٍ وحدث وشخوص ينتمون لزمن مصر المملوكية، وسأحوال الإجابة عن مرتكز مهم في الرواية، عالجه الغيطاني بطريقة جمالية، هو جهاز البصَّاصين، وخفاياها، وأساليبه في انتهاك الحقوق، وتضييق الحريّات، عبر ممارسات دمويّة، وتعسفيّة.

١) مُدخل لغوي – مُصطلحي (البصّاص، السُّلطة، الشَّخصية)

أ-١) البصّاص لُغةً

نجد في المعاجم العربية مُفردة بصَّ تحمل المعاني الآتي: إذ قال ابن فارس المتوفَّى سنة خمس وتسعون للهجرة : (الْبَصَّاصَةُ: الْعَيْنُ)[١]، فيما يُبسطُ الأزهري في مادة (ب ص ص) القولَ: فـ(بَصَّ الشيءُ يَبِصّ بَصِيصاً، وبَص بَيِصُ وَبيصاً: إِذا بَرَقَ وتلألأ.

وَقَالَ أَبُو زيْد: بَصَّصَ الجِرْوُ تَبْصيصاً: إِذا فتح عَيْنه. أَبُو عبيد عَنهُ: قَالَ شَمِر: وَقَالَ الْفراء: بصَّصَ الجِرْوُ تَبْصيصاً بِالْيَاءِ. قلتُ: وهما لغَتان، وَفِيه لغاتٌ قد مرَّت فِي حرف الضَّاد. وَقَالَ اللَّيْث: البَصْبَصةُ: تحريكُ الكلْب ذَنَبَه طَمَعا أَو خَوْفاً، والإبلُ تفعَل ذَلِك إِذا حُدِي بهَا)[٢]، والمعنى المُبتغى هو مفهوم (العين)، الذي يشير من ثمَّ إلى مفردة الجاسوس لغوياً[٣].

أ-٢) البصَّاص اصطلاحاً

جاء في قاموس أحمد أمين الخاص بالعادات في مصر والتقاليد فيها، ما يلي: (يقال للجاسوس "بصاص من بص" بمعنى نظر)[٤]، وهذا المفهوم يتواشج مع الطرح المعجمي المشار له مُسبقاً.

(١) مُعجم مقاييس اللغة ج١، ص ١٨١.
(٢) تهذيبُ اللغة ج١٢، ص ٨٨. وينظر: جمهرة اللغة ج١، ص ٧١.
(٣) ينظر: الصحاحُ: تاج اللغة وصحاح العربية ج٦، ص ٢١٧٠.
(٤) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٩٧.

ب-١) السُّلطة لُغةً

نجدُ معاجم العربية قد فسّرت مادة (سَلَطَ) على أوجهٍ عدّة منها: (السَلاطَةُ: القهرُ. وقد سَلَّطَهُ الله فتسلط عليهم. والاسم السلطة بالضم. والسلطان: الوالى، وهو فعلان يذكّر ويؤنّث، والجمع السَلاطينُ. والسُلْطانُ أيضاً: الحجَّةُ والبرهانُ، ولا يجمع لان مجراه مجرى المصدر)[١].

واتفق ابن منظور في لسانه عبر وصف مفردة سلط بالقهر، وأضاف لها بالشرح قائلاً: (السَّلاطةُ: القَهْرُ، وَقَدْ سَلَّطَه اللهُ فتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْمُ سُلْطة، بِالضَّمِّ. والسَّلْطُ والسَّلِيطُ: الطويلُ اللسانِ، والأُنثى سَلِيطةٌ وسَلَطانةٌ وِ سِلِطانةٌ، وَقَدْ سَلُطَ سَلاطةً وسُلوطةً، وَلِسَانٌ سَلْطٌ وسَلِيطٌ كَذَلِكَ.

وَرَجُلٌ سَلِيطٌ أَي فَصِيحٌ حَدِيدُ اللِّسَانِ بَيّنُ السَّلاطةِ والسُّلوطةِ. يُقَالُ: هُوَ أَسْلَطُهم لِساناً، وامرأَة سَليطة أَي صَخّابة. التَّهْذِيب: وإِذا قَالُوا امرأَة سَلِيطةُ اللسانِ فَلَهُ مَعْنَيَانِ: أَحدهما أَنها حَدِيدَةُ اللِّسَانِ، وَالثَّانِي أَنها طَوِيلَةُ اللِّسَانِ.

اللَّيْثُ: السَّلاطةُ مَصْدَرُ السَّلِيط مِنَ الرِّجَالِ والسلِيطةِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالْفِعْلُ سَلُطَتْ، وَذَلِكَ إِذا طَالَ لسانُها واشتدَّ صَخَبُها)[٢]، والمعنى الذي أريدهُ هو ذلك المعنى المألوف في المجتمع والسياسة، والذي أشارت له معاجم اللغة بمفردة القهر.

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ج٣، ص ١١٣٣، ١١٣٤.
(٢) لسان العرب ج٧، ص ٣٢٠.

ب-٢) السُّلطة اصطلاحاً

إنّ البحث عن معانٍ تُؤطرُ لنا مفهوماً عاماً للسلطةِ سيجعل من اليَسير الوصول إلى مفهوم يرسم صورة واضحة لهذا المصطلح الذي يبيّن عالم الاجتماع ماكس فيبر بعضاً من معانيهِ بالقول: «تعني السلطة إمكانية فرض انصياع مجموعة محددة من الأشخاص لأمر له محتوى معين»[١]، فيما ترى أستاذة الفلسفة ميريام ر. دالون إنّ السلطة تتحقق فاعليتها عندما نتمكن من «الحصول على سلوك معين من قبل أولئك الذين يخضَعون لها من دون اللجوء إلى إكراه جسدي»[٢].

وهذا السلوك المطلوب ليس إلّا رغبةً من السلطات في تحقيق الطاعة لها عبر وسائل إنسانية قانونية بعيدة عن العنف والقسوة وتحقيق الطاعة سيُحيل من غير شكّ نحو شرعنة السلطة وحقّها في الأمر[٣].

إنّ تحقيق سلوك معين في المجتمع لا يأتي دائماً عن طريق الوسائل القانونية المُشرعَنة التي تفرضها السلطة الحقوقية، بل قد تطلب هذه السلطة لنفسها سلوكاً غير مرغوب أو غير منسجم مع بنية عقل مجتمعها، فيؤدي هذا إلى إحداثِ جوٍ معارض أمامها ومن ثمّ ترمي إلى توظيف أداوتها غير المرئية أو غير المُشرعَنة في سبيل إدراك وتحقيق السلوك المبتغى لفرض هَيبتها وإعلاء ذاتها القمعيّة أمام ذوات الآخرين، وقد يؤشّر عليها بأنّها من الممكن أنْ تتحوّل إلى عدوٍ موروث، إذ تتحول من سلطة ذات سمة حقوقية إلى سلطة ذات طابع توتاليتاري.

(١) مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ص ٩٢.
(٢) سلطان البدايات: بحثٌ في السلطة، ص ٣٣.
(٣) ينظر: م ن، ص ٣٢.

فالسلطة تنهضُ على «إخضاع الفرد للدولة وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الأفراد، على أساس افتراضات إيديولوجية وذلك بوجود عقيدة رسمية مثل الماركسية والنازية والفاشية»[١]. وهذه السُّلطة تتميَّز عمّا سبقها من أنظمةٍ وسلطاتٍ بأنّها تتخذُ من الديمقراطية والتعددية مظهراً رسمياً لها غير أنّ الحقيقة لا تعدو أن تكون أكثر من ديمقراطية السلطان نفسه فهو الحاكم المشرّع[٢].

ج-١) الشخصية لُغةً

في اللغة الشَّخصُ هو: (سواد الإنسان إذا رأيته من بعيد، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه، وجمعه: الشُّخوص والأشخاص. والشُّخوص: السير من بلد، إلى بلد وقد شَخَصَ يَشْخَصُ شُخُوصَاً، وأَشْخَصْتُه أنا. وشَخَص الجرح: ورم)[٣].

أيضاً تشير المادة اللغوية هذه إلى: (شخص كلّ شَيْء: مَا وَقعت عَلَيْهِ الْعين مِنْهُ وَلَا يكون إِلَّا جثة وَرَأَيْت شخص الشَّيْء. وَرجل شخيص: عَظِيم الشَّخْص. وكل عَظِيم الشَّخْص شخيص من دَابَّة وَغَيرهَا. وَبَنُو شخيص: بطن من الْعَرَب. وشخص الرجل ببصره إِذا أحد النّظر رَافعا طرفه إِلَى السَّمَاء وَلَا يكون الشاخص إِلَّا كَذَلِك. وشخص من مَكَان إِلَى مَكَان إِذا سَار فِي ارْتِفَاع فَإِن سَار فِي انحدار فَهُوَ هابط. والشخوص: ضد الهبوط وَجمع شخص شخوص وأشخاص وشخاص)[٤].

(١) المثقف والسلطة في العراق١٩٢١ – ١٩٥٨ دراسة اجتماعية – سياسية، ص ٣٤.
(٢) ينظر: الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، ص ٥٤، ٥٩.
(٣) معجم العين ج٤، ص ١٦٥.
(٤) جمهرة اللغة ج١، ص ٦٠١.

ج-٢) الشخصية اصطلاحاً

أولى النقد الكلاسيكي -بشتّى تيّارته- الشخصية وأولاها أهميّة كبيرة تكاد تفوق ما خصّص من أهميّة لباقي مكوّنات العمل الروائي؛ بوصفها المعمار الرئيس في الكتابة السرديّة، وتقعُ في بؤرة صميمها، حتى أن البعض منحى الرواية تعريفاً ينصُّ على أنها (فن الشخصية)[١].

فقد اتفق النقّاد على أنّ الشخصية «تقود الأحداث، وتنظم الأفعال، وتعطي القصة بعدها الحكائي...، [و][•] فوق ذلك تعتبر العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى، بما فيها الإحداثيات الزمنية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي واطراده»[٢].

فأضحت الشخصية وفق الاتجاه الكلاسيكي في النقد عنصراً رئيساً في الرواية البرجوازية وحسب ما يطلق عليه "ر. بارت" بالنزعة الوضعية في ميدان الأدب، والناتجة عن الإيديولوجية الرأسمالية هي التي أولتْ أهميةً قصوى للشخص المؤلف، وعدّتْ الشخصية في الرواية جوهراً (عنصراً) نفسياً[٣].

كما أنّها جعلتْ قصدية الأديب في العمل الروائي فوق أيّ معنى قد يجتهد القارئ في الوصول إليه فهي تخنقه وتكتّفه، فـ«المناهج النقدية السابقة في الأبعاد النفسية والاقتصادية والاجتماعية تتعلق بالمبدع غالبا وكأنها تعتقد أن للمبدع حقوقا على القارئ فهو يرغمه على معنى معين من معاني العمل وهذا العمل هو الجيد والحقيقي

(١) نقلاً عن: الشخصية الغربية في رواية "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج: خطاب الالمركز والهامش، ص ٩٢.

(•) أينما يرد القوسان المعقوفان فهما من وضع الباحث، وتصرَّفه في النصوص، لتقليل طول اقتباستها.

(٢) بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية، ص ٢٠.

(٣) ينظر: درس السيمولوجيا، ص ٨٢.

طبيعيا بهذا كان هدف تلك المناهج لإثبات ما يريد المؤلف ولم تسع مطلقا لكي تثبت ما يفهمه القارئ»[١].

أمّا التوجّه الحداثي في النقد فقد رغب بالتقليل من سطوةِ حضور الشخصية واختزال دورها، مع تهميش الإنسان، وتشتتهُ في ظل الحروب، والدمار، فانعكس ذلك على رؤية الكتّاب الروائيين الذي اختزلوا دور الشخصية في كتاباتهم، كما في شخصيات فرانز كافكا المأساوية التي منحها حرفاً مرّة ورقماً مرّة أخرى، حتى حضور أندريه جيد، وجيمس جويس الرافضين للتحديد السيكولوجي والاجتماعي للشخصية، وهنا يتمّ تأشير بداية فقدان الشخصية «كل مقوماتها التي تعاضدت جميع المذاهب لبنائها، وأصبحت مجرد رقم أو حرف أو ضمير، نتحسس وجوده بصعوبة»[٢].

٢) شخصيَّة البصَّاص في رواية "الزِّيني بركات"

تُعدّ رواية "الزيني بركات" في صدارة المنجز السّردي العربي الذي يُحاكي الواقع المرير للشعوب العربية، ويهدفُ عبر خطاب ثقافي واعٍ إظهار استبداد الأنظمة الحاكمة، لاسيما في مصر، وذلك الزمن الرهيب الذي عايشه الغيطاني، إبان ستينيات القرن العشرين، وأساليب القمع البوليسي الذي مُورس من نظام الضبّاط الأحرار، بزعامة جمال عبد الناصر، وتضييق الحريّات على الشعب المصري، لتؤدي كنتيجة طبيعية إلى الانكسار والانتكاس في حرب الأيام الستة من عام ١٩٧٦م.

فـ"الزيني بركات" (تصوّر حقبة في تاريخ مصر، تعقد صلة بين الماضي والحاضر من خلال عدد من نقاط التماس يتشابه فيها ما كان بما هو كائن)[٣]، حقبة بلا ديمقراطية، ألجأت الكثير من الكتّاب في مصر وخارجها للجوء لتوظيف طرق عدّة

(١) القارئ في الرواية، ص ٢٤.

(٢) بناء الشخصية في الرواية: الرواية العراقية أنموذجاً، ص ٢١، ٢٢.

(٣) الروائي والتاريخ (الزيني بركات)، ص ١٣١. نقلاً عن انفتاح النص الروائي، ص ٨١.

للإفلات من سُلطة الرقيب، وتجهَّمه في وجه النصوص الإبداعية، فلجأ الغيطاني للتاريخ في مصر، وتحديداً تاريخ العصر المملوكي، ليستلهمها كتابياً، ويبثُّ من خلاله رؤاه وتفكيكاته لزمنه المُعاش، لزمنه الفعلي المختوم بشمع المنع والعبوديّة بشكلٍ من الأشكال.

تُشيَّد رواية "الزِّيني بركات" للكاتب المصري جمال الغيطاني تشكيلاً معمارياً عن طريق السّرد لشخصية ألفتها الذات العربية على اختلاف العصور، بقصديّة بَيَّنة صيغَت كمفتتح للرواية بمقولة: (لكلِّ أول آخر، ولكلِّ بداية نهاية)[١]، وهي تشير لدائرية الزمن الاستبدادي الذي يُعاني منه الفرد العربي، من شخصية رجل السّلطة القاهر، أو ما سُمّي في "الزِّيني بركات" بالبصَّاص، تلك الشخصية المليئة بالصفات التي تثير الرعب في نفوس المجتمعات العربية على وجهٍ خاصٍ، فوزّع المؤلِّف تلك صفات على عددٍ من شخصيات الرواية، وفق نظامٍ سردي مُحكم البناء، تمثَّل بتوظيفهِ المُدْرَك لـ: تعليقات السَّارد الخارجي العليم، والوثائق التاريخية من نداءاتٍ وخُطبٍ، ومراسيمٍ سُلطانية، ووقائعٍ ومراسلاتٍ ومشاهداتٍ رِحْلِيَّة، من خلال استدعاء "البوليفونية"[٢]، للإمساك بكلّ هذه النظم السرديّة، المُوحى لها أعلاه، من جهةٍ، وللإفلات من رهبة الواقع السّلطوي، وقت كتابة الرواية، ونشرها تالياً من جهةٍ ثانية، إذ يقول جمال الغيطاني عن عقد الستينيات: (عانينا من الرقابة في الستينات وأسلوب التعامل البوليسي وأتصور أن هذا كان أحد أسباب علاقتي بالتاريخ)[٣].

---

(١) الزيني بركات، مدخل الرواية.

(٢) البوليفونية فكرة استجلبها الفيلسوف الروسي وعالم اللسانيات ميخائيل باختين (ت ١٩٧٥م) من علم الموسيقى، وتعني (نوع من النسيج الموسيقي القائم على أكثر من خط لحنيّ، كلّ صوت منها له كيانه المستقل لحناً وإيقاعاً عن الأصوات الأخرى)، ينظر: معجم الموسيقا، ص ١١٩. ويردُ تعريفاً مُشابهاً في الصفحة ذاتها: (فنٌ كتابة أكثر من خطٍّ لحنيٍّ مُستقلٌ بذاته، بحيث تُسمع في آن واحد. هذه الخطوط تُكوّن عَملاً فنّيا مناسباً ذا نسيج متشابك).

(٣) من تجربتي: الزيني بركات، رابط إلكتروني.

لقد وظّف المؤلف أسلوب القناع، واستدعاء الشخصيات التاريخية؛ وسيلةً (للتعبير عن الحاضر بتقديم صورة تراثية – تاريخية للواقع الراهن. وهو يقوم بترحيل الحاضر إلى الماضي ويرسم صورة ثابتة للقمع والسلطة من خلال تأبيد الماضي وتصعيد مفهوم القمع)[1].

حيث شَخَصَ هذا الأسلوب والتحوّل نحو ماضي العرب، وتاريخهم، من قبل كتّاب عدّة، أمثال حسين مروّة، ومحمّد عابدي الجابري وزكي نجيب محمود وعثمان أمين وغيرهم، بعد نكسة العام ١٩٦٧م، وسقوط الجيوش العربية أمام الجيش الاسرائيلين، شَخَصَ على غايةٍ هامّةٍ تقومُ على أساسِ (أن الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجّرد ظواهر كونيّة عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغٍ وأشكال أخرى)[2]، وهذا ما ابتغاه جمال الغيطاني، وعمل بذكاءٍ ودؤبٍ على استيلاده عبر عالم الرواية، وما تكتنزهُ من خطابٍ جمالي موحٍ، ورمزي دال.

من الممكن اعتبار رواية "الزيني بركات" رواية شخصية بامتياز، رغم توافرها على عناصر بناء سردي أخرى، من زمان ومكان، غير أنّ للشخصية تميّز طاغٍ، وحضور فادح، له السلطة على باقي العناصر المشار لها، بدءاً من العنوان الذي يحمل اسم الشخصية (الزيني بركات)، كبير المحتسبين، أيام الحكم المملوكي على مصر في القرن السادس العشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر، وصولاً لباقي الشخصيات التي لها حضورها المرجعي التاريخي، أو اللتي ولدت من مخيلة إبداع الغيطاني.

للبصَّاص موصفات خاصّة، أشار لها الشهاب الأعظم زكريا بن راضي، أثناء عقد مؤتمر البصَّاصين الكبير في مدينة القاهرة، وفيها صاغ زكريا تشكيلاً لمفهوم البصَّاص، وصفاته، وسوكياته، والهدفِ من وجوده، كحارس للدولة، إذ يقولُ: (**البصاص لا**

(١) في الرواية العربية الجديدة، ص ١٨٢.

(٢) جماليات التعالق النصّي في رواية "الزيني بركات" لجمال الغيطاني، ص ١١٣.

يعمل من أجل نفسه أبدا، الغرض الأول والأخير، إرضاؤه سبحانه وتعالى، ثم يأتي السلطان بعد هذا، ثم أركان الدولة، وما دام البصاص مؤمنا بالله بربه، مسلما كان أو مسيحيا، أو بوذيا، ويؤمن بمولاه، فإنه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها، ورفع الأذى عنها)[1].

ويدعِّم كلامه بمجموعة من الآيات القرآنية، الساندة لسياق خطابه، وشواهد من التاريخن إذ يرى في البصَّاص ذراعاً للسلطة: فـ**(الدرس العظيم المستفاد من التواريخ، أنه في حالات اندلاع الفتنة فلا بد من باد البصاص، البصاص يعمل للعدل وحده، ورمز العدل هو كرسي السلطنة، كرسي السلطنة ذاته)**[2].

فضلاً عن الصفات الجسديّة والنفسية الواجب توافرها في شخصية البصَّاص، فيقول: **(من خصائص البصاص الأعظم، البصاص الصفوة، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم، طبيعة البصاص تقضي عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس، مع عدد كبير من الأجناس، آلاف البشر المختلفون في طبائعهم ونزعاتهم، لا يوجد شبيه للآخر، والبصاص الحق، البصاص المكين، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين وهذا صعب، ربما يبدو محالا، لكنه سهل علينا يسير، يجب على البصاص أن يكون فحاما عندما يتحدث الى الفحامين، عطارة نابغا في العطارة عند حديثه إلى العطارين. ساخطا عند استماعه إلى الساخطين. حشاشا عندما يأتنس بالحشاشين، خاطئا عندما يسلك طريق الخاطئين. مُستغفرا تائبا عندما يسجد بين التائبين. راضياً مع الراضين. يجب عليه أن يتنقل بين إظهار الكراهية والإعراب عن الحب في غمضة عين)**[3].

(١) الزيني بركات، ص ١٩٣.

(٢) م ن، ص ١٩٤.

(٣) م ن، ص ١٩٤.

يمكن تركيز حضور البصّاص، بوصفه أسلوب قمع وعقوبة وتسلّط، أكثر من تمثّله في ذات معينة، في شخصيتين رئيستين هما (الزيني بركات بن موسى) محتسب الدولة و(زكريا بن راضي)، ومُحتسب الدولة هو منصب عرّفته السّارد العليم بالقول: **(منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية، ويتلخص في ضمان الخير وطرد الشر)**[1].

فالصفة المعنوية الممنوحة للمُحتسب تشيرُ لتوليه مسؤولية تنفيذ شعار ديني سامق، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذا تلبّس بقناع الزهد بالمنصب، وتركه لغيره؛ ادعاءاً منه بثقل تلكم المسؤولية، ومردوداتها غير الكفيلة بإرضاءِ الناس، ومنحهم العدالة المُشتهاة، إذ يقول: «**على مرأى من الأمراء في حضور عظيم طلب الزيني بركات بصوتٍ خدشه التأثر أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوتٍ مرتجف: (الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى قضاء عمري في أمن وسلام، بعيداً عن أمور الحكم والحكّام**»[2].

فأظهر المُحتسب بزخرفٍ بلاغي مكين صوتاً آخر، غير صوته الحقيقي، انفعالات مُضخّمة، تخافُ إيذاء الناس، وتحسبُ للآخرة حساباً كبيراً، وللضمير حساباً شديداً، انفعالات وقورة لا تعكس صدق ما يعتريه من طمعٍ للمنصب، ورغبةٍ طاغية ستتبيّن لاحقاً في التسلّط، والتحكُّم في مصائر البشر، إذ يتنامى مفعول القمع، والإجرام شيئاً فشيئاً مع توالي أيّام حكمهِ مُحتسباً لمصر.

وبهذا الدهاء والمكر، استولى بركات بن موسى على اتجاه واسع جداً -في البدء- من شرائح المجتمع، لكن مع توالي الأيام انشطر الناسُ في إدراكِ جوهر التزامه بتحقيقها، بين مُدرك أو مُطئمن لنشر العدل الاجتماعي على يد المُحتسب، كما في شخصية (سعيد الجهيني)، وبين مُشككٍ بأصالة الضمير وصحوته عند الزيني، إذ

(١) م ن، ص ١٣٨.

(٢) م ن، ص ٤٠، ٤١.

يقولُ البصَّاص (عمرو بن عدوي) في تقريره المرفوع لمقّدم البصَّاصين، في شرح حالة الناس وانطباعهم عن المحتسب الجديد: (**أجمل ما سمعت كما يلي:**

أولا: كثرة الدعاء بعد النداء الأول والرابع، للزيني بركات، وكثر الكلام اليب من سائر الأفواه؛ خاصة النساء، اللواتي رحن يهتفن ويهرجن، ويصحن "أدام الله أيام الزيني" [...]، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول، اسمه شمس الرمضاني، ويسكن أول ربع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين، لحيته بيضاء، أعرف مكانه) أنه يرى الزيني ينزل متخفياً في النهار والليل يتسمع أحوال الناس، يجس ما يؤلمهم، وإن الله أرسله في هذا الزمان نصيراً للفقراء)[1].

هذا التهليل للزيني بركات تبدو كأنها سمة مُتجذرة في المجتمعات العربية، التي تصفّق للحاكم المستبد، ولا تنصت لصوت الحرية إلا بعد فوات الأوان، ألم يقل هيغل: (إنَّ الشرقيّ خلق الإله على شاكلة حاكمه)[2]!.

وهذا المدلول الذي تمكّن من رسمه الزيني بركات لم يأت إلا بمكر وحيلة كبيرتين، فها هو يخاطب زكريا بن راضي، ويهبه مفاتيح سر اللعبة لو صحَّ التعبير، لعبة امتلاك محبّة الناس بوساطة الخداع لا العدل، حيث يقول لكبير البصَّاصين: (**اسمع يا زكريا لابد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر، غداً اركب حصانك، دع رجلاً من رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك، ليضرب الثاني الأول ضرباً فضيعاً، وطبعاً يتصادف عبور موكبك، هنا ترجل أنت أنصفْ الفلاح واقبضْ على المملوك، أكثر من أشباه هذا يحببك الله إلى قلوب الخلق)**[3].

(١) م ن، ص ٩٠، ٩١.

(٢) نقلاً عن: أكثر من كويجتو، ص ١٣.

(٣) الزيني بركات، ص ١٦٦.

وهنا يأتي المؤشر على ذلك التناقض الرهيب، الذي تبطنه ذات رجل الدولة البوليسية، وما طرحه الخاص بخوفه من عذاب ربِّ العالمين سوى زيف، وبهرجة وتظليل، تشتهي عوام الناس رؤيتها على الدوام، وتناقلها في الأحاديث الرئيسية والهامشية مع بعضهم البعض، وهذا الملمح أي ملمح شكّ الناس بصدق نوايا الزيني، رصده البصّاص عمرو بن عدوي في تقريره (**سمعتُ بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهوة (لانضي) "أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندراني من سكان باب الشعرية [...] يقولون كلاماً له طعم آخر، إذ أبدى فتوح الاسكندراني شكاً وريبة في نداءات الزيني**)[1].

فاسهاب البصَّاص في تلقُّف كلّ ما التقطته عيناه وأذناهن وتدوينه في تقريره من أمور تتعلق بمظهرِ المرصود من المواطنين، وسنّه، وعمله، ومسكنه، وهذا نابع من أسلوب التدريب البوليسي الذي كان شائعاً -ولم يزل- وطوّره المُحتسب بمعيّة حليفه قائد جهاز البصَّاصين.

فيما تأتي شخصية (زكريا بن راضي) في المكانة التالية للمُحتسب، من حيث الأهمية والحضور داخل الرواية، حيث أولى المؤلف الشخصية ذات المرجعية التاريخية (=الزيني) أهميةً ودوراً على الشخصية ذات البُعد التخيّلي (= زكريا)، وكأن الغيطاني يحاولُ فرض المواءمة بين واقعية شخصية الزيني، وبين الإحالة الرمزية لزمن الكتابة، أي مع اقتراب عقد الستينيات من النهاية، ومع يحمله ذلك العقد المهم من تحوّلات على مستوى السلطة، والمجتمع، والسلوكيات والاقتصاد، وغياب حرية التعبير على مستوى الأفراد، أو الصحافة، أو تعددية الأحزاب، التي كان يتمتعُ ببعضٍ منها المصريون قبيل ثورة العساكر في العام ١٩٥٢م.

(١) م ن، ص ٩٢. ويُنظر: ص ١٣٥.

يعدُّ زكريا بن راضي قائد جهاز البصَّاصين البارز، الذي أسسه على قاعدة بيانات واسعة، وأرشيف ضخم يحوي أسماء ناس، ووصف أمكنة، إذ يُوجِّه كادر جهازه بالقولِ: **(عندما أود الذهاب إلى أي بلدة في مصر لا ابتعد عن بيتي، أجيء إلى هنا، لكل بلدة قسم، كل قرية، أي كوم أو عزبة، أي إقطاع في بر مصر من أدناها إلى أقصاها، كل دفتر يحوي أوصاف المكان، ما اشتهر به، ثم أهم الأشخاص فيها، كافة ما يتوفر عنهم، القسم الخاص بالقاهرة يحوي حاراتها وخططها وجوامعها، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها وبيوت الخطأ فيها وشرطتها وعسسها وفقهائها وحماماتها وأسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتها وملاهيها، وأسماء الأروام المقيمين والقادمين والراحلين والإفرنج العابرين، ومن يتصل بيهم، يتردد عليهم من المصريين، كل أمر كبير أو صغير هنا، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلّق بهم، أمزجتهم وعاداتهم، مشاربهم وأهواؤهم، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا، يقول زكريا متباهيا: هذا القسم في الديوان مفخرة للسلطان وغرة جبين السلطة المصرية، لم يحدث قط أن أُعِد شيء كهذا في تاريخ أي بصاص مصري أو إفرنجي)**[1].

فالنصُّ المُقتبس –رغم طوله– فهو يُشير لضخامة جهاز البصّاصين، وهندَّسته المُتقنة في مُراقبة الناس، سواء من أبناء البلد، أو من زوّاره الأجانب والمقيمين فيه، لا فرق ما دام وجودهم على أرض مصر المملوكية.

فهذا الجهاز إنما أنشئ لتدجين المجتمع، والسيطرة عليه، ولا يتوانى رجالات هذا الجهاز في فعل أيّ مُمارسة وسلوك تضمنُ بقاء راية السلطة، وهذا يتمّ عبر تفعيل نظام المُراقبة حيناً، وحينا آخر المُعاقبة التي يُعرّفها فوكو بـ(هو إقصاء، وإسكات، وإعدام ما يجب قمعه بمجرّد محاولة ظهوره [...] فالقمع هو ما يحرم "الموضوع" من مادّيته، و"الذات" من قدراتها)[2].

(١) م ن، ص ٣٤. ويُنظر: ص ١٣٣.

(٢) ميشال فوكو المعرفة والسلطة، ص ٢٢.

ولم يقتصر أسلوب زكريا بن راضي على مراقبة المجتمع، بل كان أسلوباً يُمارسه في حياته الشخصية، وشؤونه الخاصّة، التي هي بمعزل عن وظيفته، بوصفه قائد جهاز البصَّاصين، كما في تعامله الحميمي مع زوجاته وجواريه وغلمانه[1].

والبصّاص لا يتوانى في إنزال العقاب أيّ شخص -مهما بلغت منزلته- إذا حسّ البصَّاصُ بريبة إتجاه الشخص المعني بالشك والمُراقبة، فتقوم السلطة (= البصّاصون) بتحليل عيّنتها المرصودة؛ بغية تقديمه للجزاء المُقدَّر، وهذا ما حصل مع عليّ بن أبي الجود، مُحتسب الدولة السابق للزيني بركات، من خلال تقرير البصَّاص الآتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم سبحان الذي كشف كل غطاء، وبسط الأرض، ورفع السماء، نتوجه إلى أمة الإسلام، نكشف أمرا طل به الترقب، ليكون عبرة لمن اعتبر، الحي ومن غبر، تفاصيل هذا مما يلي.. منذ عام، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المدعو علي بن أبي الجود، وتسليمه إلى متولي الحسبة الشريفة وذلك لعقابه، وكشف المخفي وراء أبوابه، ومنذ البداية اضمرنا الصبر حتى النهاية، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان، لن يحرق عضو في جسمه، أو بنعل كالفرس، وهذا سبب المدة العاملة بين تسلمنا علي بن أبي الجود، وكشف امره، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان، وكل هذا امتص من دماء المسلمين، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه. بلغ دخله اليومي من أملاكه وأطيافه وضماناته وحماياته تتمة لف دينار يوميا. واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهبا ووجد عنده ياقوت أحمر، زنة. الفص رطل ونصف، وستة صناديق فيها جواهر، ومن الماس وعين المر مائة قطعة)[2].

فكشف التقرير المرفوع لكبير البصَّاصين عن حجمِ الثراء الفاحش، الذي جناهُ ابن أبي الجود، بواسطة نفوذه وتجبّره على الآخرين، فحاز على نعم كثيرة مُستثمراً آلام الناس، وظلمه لهم، حتى تعارضت سلطته مع مَن هو أشد فتكاً منه، فكما كان متناً في

(١) يُنظر: الزيني بركات، ص ٣١، ١٢٤، ١٢٥.
(٢) م ن، ص ١١٣.

مركزية السلطة، صُيّر هامشاً غير مألوف، وغير مرغوب به، يسعى الكلّ للظفر به، وأولهم الزيني بركات، المُحتسب الجديد:

(من الثابت الذي لا يدع فسحة للشك أن الزيني بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يتم فيها... استخراج الحقيقة، وفي أول النهار أخذه الغيظ، لثبات علي ابن أبي الجود، دخل بنفسه، راح يمد أصبغ بده الوسطى بحركة ثابتة في صدر علي ابن أبي الجود، في نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه، بدأ نزول الماء قطرة قطرة، بفاصل زمني معلوم، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاف إلى قسمين، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا هنا زعق فيه الزيني. أموال المسلمين يا علي. ولم يجب. عصر اليوم التالي: أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين، نزعوا عنه ثيابه تماما، نظروا إلى علي بن أبي الجود، قال الزيني «أنظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل، أظهروا حدوتين ساختين لونهما أحمر لشدة سخونتهما، بدأ يدقهما في كعب الفلاح المذعور، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي، وكلما حاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه)[1].

إذ لم يكتفِ الزيني للوصول لغايته بتعذيب ابن أبي الجود، بل لجأ لتعذيب أحد المستضعفين ممن رُمِيَ في قعرِ سجون السلطة، واستخدامه أداةً لانتزاع الاعترافات من الآخرين، وهذا دليل على مدى استهانة السلطة بأرواح الناس، واستباحتهم لهم، وهذا ما صرّحت به لفظة (المنسيين) في المقتبس النصِّي السابق، فـ(أهداف السلطة موجهة لخدمة أغراض خاصة، أو كانت معبرة عن رؤية ذاتية بحتة لفئة دون غيرها)[2].

وعلى المنحى هذا، أباح جهاز البصَّاصين لنفسه في تفتيش مسكن المحتسب عينه، فلا أحد أكبر من هذا الجهاز، حتى السلطان نفسه دون مبالغة، يقولُ البصَّاص في أحد تقاريره المرفوعة لزكريا بن راضي: **(بعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين**

(١) م ن، ص ١١٨. وينظر: ص ١١٩.

(٢) نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، ص ٤٤٣.

مع الزيني [...] استوثقنا من مصادر أخرى، تعرفون بعضها، والأخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة، أما بعد.. ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني [...] لقد نقلوا علي إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة.

لا نعرفُ متى انتقل إلى ملكية الزينى، من شيده وبناه وجار بحث هذا .. يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة، ليست زنازين بالمعنى الدارج، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر ونصف، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية، لكن الفتحة لا تظهر أبدا من الخارج، فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حلول الهرب، حتى لو نام تحت الباب مباشرة، ولو أدار ظهره فحتما يجدها في مواجهته، يأز الضوء ليلا ونهاراً، يحدث وشاً خفيفاً لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة، ويبرز من الجدران لوح خشبي قصير بتناول فوقه المحبوس طعامه)[1].

(١) الزيني بركات، ص ١١٥، ١١٦.

خاتمة

جاءت "الزيني بركات" بوصفها خطاباً جمالياً يلمّح تارة، ويصرّح تارة أخرى، عن تلك الدولة القمعية التي أنشئت في مصر، عهد المملوكيين، وفي عهد جمال عبد الناصر، فلجاء الغيطاني للتاريخ، يوظّف منه أحداثاً، ويستدعي شخصيّات، يمازجها والشخصيات المتخيلة، مُنشئاً نصَّاً يستهدف وعي القارئ، ويثبّتُ وثيقة أدبية خالدة، شاهدة على عهدٍ مَرَّ، وراهنٍ بوليسي مَرَّ، وسيمرُّ على مختلف البلاد العربية.

رواية "الزيني بركات" غاصتْ في التاريخ المملوكي؛ للبحث عن إجابات عدّة، يُستشفُ منها علل الانتكاس، والهزيمة أمام إسرائيل رغم كلّ الاستعدادات التي كان يدّعيها كبار نظام الحكم العسكري وقتها. أسئلة الرواية كثيرة، ودلالات الأحداث تتعدد من قارئ لآخر، وتبقى لكلّ قارئ رؤية فهم مُعيّنة يُسقطها على "الزيني بركات".

مصادر البحث ومراجعه

- أكثر من كويجتو، أحمد برقاوي، مجلة الآخر، العدد ١، صيف ٢٠١١م.
- بناء الشخصية في الرواية: الرواية العراقية أنموذجاً، مصطفى ساجد الراوي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣م.
- بنية الشكل الروائي: الفضاء – الزمن – الشخصية، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- تهذيبُ اللغة ج١٢، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق محمّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- جماليات التعالق النصّي في رواية "الزيني بركات" لجمال الغيطاني، متقدّم الجابري، مجلة كليّة الآداب واللغات، جامعة محمّد بسكرة، العدد الثامن، جانفي ٢٠١١م.
- جمهرة اللغة ج١، أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هـ)، تحقيق رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- درس السيمولوجيا، رولان بارط، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٣م.
- انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
- الزيني بركات، جمال الغيطاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- سلطان البدايات: بحثٌ في السلطة، ميريام ريفولت دالون، ترجمة ساید مطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
- الشخصية الغربية في رواية "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج: خطاب الالمركز والهامش، جمال مباركي، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومنهاجها، جامعة بسكرة، العدد الرابع، ٢٠١٢م.

- الصحاحُ: تاج اللغة وصحاح العربية ج٦، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
- الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة ١٨٣، الكويت، مارس ١٩٩٤م.
- في الرواية العربية الجديدة، فخري صالح، الدار العربية للعلوم ناشرون – منشورات الاختلاف، بيروت – الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.
- القارئ في الرواية، آمال سعودي، منشور ضمن أشغال الملتقى الوطني الأول حول: اللسانيات والرواية ٢٢ و٢٣ فيفري ٢٠١٢م.
- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م.
- لسان العرب ج٧، محمّد بن مكرم جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت.
- المثقّف والسلطة في العراق ١٩٢١ – ١٩٥٨ دراسة اجتماعية – سياسية، رهبة اسودي حسين، من إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٣، بغداد ط١، ٢٠١٣م.
- معجم العين ج٤، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د ت.
- معجم الموسيقا، مجموعة مؤلفين، مَجْمَع اللغة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- مُعجم مقاييس اللغة ج١، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

- مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ماكس فيبر، ترجمة صلاح هلال، مراجعة وتقديم وتعليق محمّد الجوهري، المركز القومي للترجمة، العدد ١٦٧٥، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- من تجربتي: الزيني بركات، جمال الغيطاني، مقهى الثقافة العربي www.khayyat.net.
- ميشال فوكو المعرفة والسلطة، عبد العزيز العيادي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، محمّد علي الكردي، دار المعرفة الجامعية، د ت.